الشيوعية أو الاشتراكية الماركسية

للأستاذ مسعود عالم الندوى

ترجمة : صهيب حسن

لم تكن الاشتراكية (١) التى نودى بها قبل ماركس إلا نظرية إقتصادية بحتة لا تريد من ورائها إلا القضاء على الملكيــة الفردية ثم توزيع الثروة ومصادرها توزيعاً عادلا بين أبناء الدولة ، وعند ما نادى بها ماركس أخرجها من حيز الناحية الاقتصادية البحتة و جعلها نظاماً مستقلا للحياة ، لأنه لابد من تغيير كامل فى جميع شعب الحياة وأنظمتها إذا أريد إحداث ثورة فى شعبة واحدة منها ، وهذا الذى حدا ماركس إلى وضع فلسفة إيجابيــة للحياة البشرية كلها تكون أساساً لفلسفته فى الاقتصاد ، ومادامت الاشتراكية لاتحدوها إلى الامام إلا المادة والخبز لم يكن النظام الذى وضعه ماركس للحياة إلا نظاماً مادياً محضاً ، فاشتراكية

(١) أوضحنا الفرق بين الاشتراكيــة Socialism و الشيوعية و الاشتمالية Communism فى حاشية سابقة بايراد نص كامل عن خطاب لينين، ومما يليق بالذكر أنهما تختلفان اختلافاً بيناً عند ما تتحدثان عن النظرية الاقتصادية مفصلا بينما تتحدان من حيث المساواة فى المعيشة والقضاء على الرأسمالية .

اليوم ليس حلا لمشاكل العمال و الفقراء فحسب بل إنما هى فلسفــة خلقية و نظام يتحدث عما بعد الطبيعة أيضاً ، و بما أن ماركس وجه عناية خاصة إلى الناحية السلبية أكثر من توجهه إلى الناحية الايجابيـة سميت اشتراكيته بالاشتراكية الثورية أيضاً .

نبذة من حياة كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣هـ)

ولد ماركس — الرسول اليهودى للاشتراكية — (١) فى بلدة « ترائر » Trier إحدى مقاطعات رائن لند (ألمانيا) و كان يهودياً نسلا و إن كانت عائلته قد اعتنقت المسيحية عند ما كان صغيراً ولكنه كان بنفسه لايلق إلى المذهب بالا حيث كان من فطرته الكبرياء والجراءة والعناد ، فكان يتبع عقله دائماً محتسباً نفسه معصوماً من الخطأ مع سيطرة كاملة على عواطفه الجامحة مما جعله رجلا مقداماً ذا قوة ثورية و بصيرة نافذة و عقل أخاذ ، كان أبوه محامياً ثرياً أنفق على تعليم ولده بسخاء فقد تعلم فى جامعات بون وبرلين ، وكان يحب مطالعة التاريخ والقانون و الفلسفة كما حازت فلسفة هيجل باعجابه الشديد و كانت يومئذ حديث الأندية و المجالس .

أنهى دراسته فى ١٨٤١م رسمياً و قد أصبح عندئذ صاحب أفكار راسخة كما أن الأفكار السائدة آنئذ مثل النظريات الاقتصادية لريكاردو

(١) يقول الشاعر الكبير محمد إقبال عن ماركس .

« لم يكن رسولا و لكنه كان صاحب كتاب ، أما اليوم فقد بلغ من حب الاشتراكيين وإكرامهم له إلى أن جعلوه إلهاً كما أعطوا للينين مرتبة النبوة .

Recordo و آدم سمث Adam Smith و الآراء السياسية لوالتير Voltaire و روسو Rousseau أخذت بلبه و لبابه .

و بفشو هذه النظريات بدء عصر الظلم و الطغيان يمحى من الوجود و لاحت تباشير عصر تموج فيه المساواة و الأخوة بينما انتشرت فلسفة هيجل (١) فى ألمانيا انتشار الضوء حتى إن الناس أخذوا يؤلهون الدولة (٢) متأثرين بفلسفته .

تأثر ماركس بهذه الأفكار المثلثة الجوانب و قد تمثلت فى أفكاره أيضاً ، ولذلك نرى أن أهم الجوانب الثلاثة من تعاليمه - وهى التعبير المادى للتاريخ ونظرية القدر الزائد وتصادم الطبقات يمثل كلا من الفلسفة و الاقتصاد و السياسة (٣) .

بدء ماركس حياته العملية فى ١٨٤١هـ حيث عين مديراً لجريدة يومية تصدر من باريس نفث على صفحاتها جروح قلبه الحاقد بيراعه الباهر و فطنته الذكية حتى عوتب من قبل الحكومة فالتحق بجريدة أخرى فغادر إلى برسلز

(١) هيجل ، من فلاسفة ألمانية المشهورين (١٧٧٠-١٨٣١) .

(٢) لا تتقيد دولة هيجل المرسومة بأى قانون أوأصل ولا هى مسئولة عن أى جهة من الجهات فهى معصومة عن الخطاء فى نظرهم و ليست الحكومة الحالية المحتكرة Totalitariam فى ألمانيا اليوم إلا نتيجة ملموسة لأفكار هيجل .

(٣) سوف نشرحها فى الصفحات المقبلة .

ألمانية فى نفس البلد و لكن القيود الحكومية حالت دون نيل مرامه فغادر إلى برسلز .

كانت إقامته فى باريس لزمن قصير إلا أن لها أهمية كبرى فى حياته من بعض النواحى حيث و افاه الحظ برفيق وفى لعب دوراً هاماً فى نشر أفكاره و تعاليمه ، كان رفيقه هذا المدعو بفريدرك انجلز Fricdric Engels (١٨٢٠ - ١٨٩٥م) ابناً لصاحب مصنع ثرى و كان يميل إلى الاشتراكية بوحى من تعاليم روبرت آين و لما لقى ماركس فى ١٨٤٢م تأثر بأفكاره و أصبح من أكبر أنصار الاشتراكية الثورية حتى مماته (١٨٩٥م) و قد تمتع بالحياة اثنى عشرة سنة بعد وفاة ماركس قضاها فى نشر الأفكار الاشتراكية بجد واجتهاد ، و له المرتبه الثانية فى تاريخ الاشتراكية بعد رائد لوائها وقائد حركتها كارل ماركس .

وجه ماركس مطية السفر إلى إنكلترا (سنة ١٨٤٥) مع صديقه انجلز و بدءا ينظمان فيها حركة قوية للعمال وأسسا سنة (١٨٤٧م) الجبهة الاشتراكية الدولية ، وقد سافر ماركس من أجلها إلى فرنسا و بلجيكا و ألمانيا و انتهى به المسير أخيراً إلى لندن سنة (١٨٤٩م) حيث قضى ثلاثاً و أربعين سنة من عمره الباقى فى حياة عسر و فقر ، فى غرفة متواضعة مظلمة ملأها بكتاباته الغريزة عن نظرياته الاقتصادية وأفكاره المادية كما كان يكسب بعض قوته مما كان يدبجه يراعه لبعض الصحف المحلية و تسعفه أموال إنجلز أحياناً و تجنبه من الاستدانة إلى أن فارق الحياة سنة ١٨٨٣م

مؤلفات ماركس :

قضى ماركس حياة حافلة بالمعارك ولم تمهله شبكة القانون ليستقر فى مكان فكان دائماً فى تجوال وتسيار إلى أن ألقى عصا المسير فى بقعة من بقاع لندن حيث تنفس الصعداء ، و لم يكن ليدفع عنه الفقر والجوع إلا بما كان يملك من موهبة علمية و أفكار خصيبة تمكن منها بتسويد آلاف من الأوراق بثاً لنظرياته ، ونجد أهم مافيها هذه الأشياء الثلاثة التالية الذكر .

أ ــ الميثاق الاشتراكى Communist Manifesto .

ب ــ النقــد لنظام الاقتصاد - Critique of Political Economy - .

ج ــ رأس المال Capital

و يحتل من بينها الميثاق الاشتراكى المقام الأول لأنه الأساس للاشتراكية الماركسية أو الشيوعية ، كما أنه دعوة صارخة لجميع عمال العالم إلى العمل و إعلان للحرب العشواء ضد الرأسماليين بأجمعهم ولم تقل بعد روعته وقوته الثورية ، وقد شاركه انجلز فى تأليفه و إن كان يرجع الفضل الأكبر لتأليفه إلى ماركس نفسه كما أقر به إنجلز أيضاً .

نشر هذا الميثاق لأول مرة فى سنة (١٨٤٨م) و صادف قبولا رائعاً لم يسبق له مثيل حتى طبع له مئات الآلاف من النسخ خلال القرن الماضى و هذا هو الميثاق الذى عرض فيه ماركس فلسفته المادية لأول مرة فى التاريخ .

أما كتابه الثانى « النقد لنظام الاقتصاد » فيشتمل على البحوث

الاقتصادية تتجلى فيها نظرية ماركس عن القدر الزائد خاصة ولا نعدو الحق إذا قلنا بأنها كانت بمثابة مبرر لما فى الميثاق الاشتراكى من أفكار ثورية و نظريات طاغية .

أما كتابه الثالث عن رأس المال الشهير عند الناس باسمه الألمانى Das Kapital فهو ملخص لأفكار ماركس كلها وماهو إلا كصحيفة سماوية عند الاشتراكيين .

و قد حظى المجلد الأول من هذا الكتاب بالطبع و النشر فى حياته سنة (١٨٦٧م) أما المجلدان الباقيان فقد نشرا بأشراف و ترتيب صديقه الحميم إنجلز سنة (١٨٨٥م و ١٩٩٤م) و هذا الكتاب وإن كان يحتل مكانة المصاحف عند الاشتراكيين ليس إلا مجموعة ألغاز نظراً إلى كثرة ما فيها من أرقام و أعــداد يعسر فهمها و إدراك معانيها حتى على المثقفين من الناس ، و ماأصدق قول الشاعر محمد إقبال عند ما خاطبه قائلا .

« يا طبيب الاقتصاد ماذا هنالك فى كتبك إلا عرضاً لخطوط منحنية متشابكة !!! لا تعدو أن تكون أعجوبة من العجائب فحسب !!

« يتبع »